

إن قضية الطبع والصناعة ، قضية في الفكر الإنساني ، شغلت مكاناً بارزاً في النظرية الشعرية لأصلتها الوطيدة بتحديد مفهوم الشعر ، وتوضيح كثيراً من قضاياها ، وقد أثبتت هذه القضية منذ العصر اليوناني ، ثم انتقلت إلى العرب ، فكتبوا فيها بحثاً مستفيضة ، تحدثوا فيها عن معاييرها الجمالية التي تعد من أهم مقومات العمل الأدبي .

¹- المصدر نفسه/ص198.

²- قصيدة في مدح الشعر وأدبه : ج1 ص199.

وليس من شك في أن (أرسطو) كان أول من أشار إلى أهمية الطبع والموهبة في الشعر، كما كان أول استخدم مصطلح لصناعة الشعر ، وذلك في قوله ، " إنا متكلمون الآن في صناعة الشعر وأنواعها ، وعيرون أي قوة لكل واحد منها (...) ¹، ويضيف : " غير أن الناس عندما يوصلون وزن صناعة الشعر (...) ²، ثم كرت أرسطو مصطلح (صناعة) في غير ما موضع من كتابه (الشعر) ³.

وينقل عن (فليب سدي) قوله إن الإنجليز التقوا مع اليونانيين في تسمية الشاعر (صانعاً) ⁴ ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال أن هذا الالتقاء كان من أثر (أرسطو) و(هوراس) ؛ فترجم مؤلفيهما (فن الشعر) ، و(قصيدة فن الشعر) ، كما كان مذهب أكثر نقاد القرن السادس عشر في إيطاليا يقوم على أن الشعر يتطلب التعلم والصناعة ، " ويعتمد عليها أكثر مما يعتمد على الإلهام أو الموهبة" ⁵.

وقد عالج النقاد العرب قضية الطبع والصناعة قريباً من هذا الاتجاه ، إلا أنهم لم يعطوا تعريفاً واضحاً للطبع، وإنما ربطوا مفهومه - أحياناً - بالنص ، وأحياناً أخرى بالشاعر فتحدثوا عن الشعر المطبوع ، والشعر المطبوع ، دون أن يوضحوا دلالة هذا المفهوم ، وبعبارة أخرى : هل أطلقوا هذا المفهوم لوصف العمل الإبداعي أم لوصف صاحبه؟ ويدوا أن انشغالهم بالجانب الوظيفي للطبع ، هو الذي أدى إلى عدم اعتنائهم بضبط مصطلح الطبع، ويتجلى هذا الانشغال في وجهين اثنين أولهما أن النقاد العرب اعتبروا الطبع شكلاً جديداً للبحث عن دواعي الإبداع وبواعثه النفسية ، وثانيهما ، أنهم نظروا إلى الطبع بوصفه رد فعل للصناعة والتكلف.

وقد أهتم العرب بقضية الطبع والصناعة ، وجعلوها أساس بحثهم وفي هذا المجال ، ودرسوها على أساس المقابلة بين الطبع والموهبة من جهة وبين الصناعة والتكلف من جهة أخرى ، وقد أوضح النقاد تفصيلاً أثر الموهبة في الإنتاج الأدبي ، ولكنهم رأوا أن الموهبة وحدها لا تكفي في عملية الإبداع ، "بل لابد من الدربة والمزج ، وطول الممارسة وسعة الإطلاع ، والحفظ لروائع الشعر"¹.

وعالج النقاد المغاربة قضية الطبع والصناعة قريباً من هذا الاتجاه ، فقد اهتموا بها وخصوها بالبحث والدراسة ، ونذكر منهم : أبا إسحاق الحصري ، وابن رشيق القيرواني ، وابن شرف القيرواني ، وحازم القرطاجني ، وأبا محمد القاسم السجلعاسي.

تحدث أبو إسحاق الحصري عن قضية الطبع والصناعة ، وأورد جانباً كبيراً من الأخبار التي تتعلق بها² ، يقول الكلام الجيد الطبع مقبول في السمع ، قريب للمضال بعيد للمال ، أنيق الديباجة ، رقيق الزجاجة ، يدنو من فهم سامعه كدونه من فهم صانعه ، والمصنوع مثقف الكعوب ، معتدل الأنوب ، يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن في صفحاته كما يجول السحر في الطرف الكحيل ، والأثر في السيف الصقيل ، وحمل الصانع شعره على الإكراه في العمل وتنقيح للباقي دون إصلاح المعاني يعطي أثر صنعته ويظفي أنوار صيغته ، ويخرجه إلى فساد التعسف ، وقبح التكلف ، وإلقاء المطبوع بيده على قبول ما يعتته هاجسه ، ونفسه وسأوسه ، من غير أعمال النظر ، وتلقيق الفكر يخرجه إلى حد المشتهر الزث ، وحيز الغث ، وأحسن ما أجرى إليه ، وأعول عليه التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين ، من الطبع والصناعة³.

يشير الحصري في هذا النص - إلى نوعين من الشعر : مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الكلام الجيد الذي يقبله السمع لعنوية ألفاظه ورقة معانيه ، أما المصنوع فهو الكلام الذي أخذه صاحبه بالتجويد والتنقيح ، وأكثر فيه من الصور البيانية والبديعية ، إلا أنه ينبغي لصاحبه المصنوع أن يتعد عن التكلف ، وذلك بتهديب معانيه ، وإختيار ألفاظه ، كما ينبغي لصاحب المطبوع ألا يقبل كل ما يهيج به خاطره من غير أمعان النظر والفكر وينتهي الحصري إلى التوسط في مسألة الطبع والصناعة.

¹ - الدكتور : محمد عبد المطلب مصطفى : إقامات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين : الطبعة الأولى ، دار الأندلس : بيروت 1984م/130.

² - ينظر على سبيل المثال القصة بين الأسمعي وبعض الأعراب في : زهر الآداب وثمر الألباب : ج2 من 252-454.

³ - زهر الآداب وثمر الألباب : ج3 من 895-896.

كما تعرض ابن رشيق لدراسة قضية الطبع والصنعة ، وخصها بباب مستقل في كتابه العمدة ، أستهلها بالحدیث عن حد الشعر المطبوع والموضوع ، يقول : "المطبوع ، هو الأصل الذي وضع أولاً ، وعليه المدار ، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم ، فليس متكلفاً تكلف أشعار الملوك ، لكن وقع فيه بهذا النوع الذي سموه الصنعة من غير قصد ولا عمل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ، ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها عفوفاً من التعقب¹ .

يرى ابن رشيق أن المطبوع هو الأصل الذي يدور عليه الكلام ، وبعبارة أخرى : المطبوع هو الدفقة الشعورية الأولى التي تأتي للشاعر بعفوية وبساطة دونما تكلف أو تصنع ، أما المصنوع فينقسم إلى قسمين : الأول جاءت صنعته عفواً من غير قصد ولا عمل مثلما صنع زهير ابن أبي سلمى في الحوليات ، والثاني جاء عن طريق التصنع والافتعال.

والذي لا شك فيه "أن مفهوم المطبوع قد تبلور عند ابن رشيق ، وهو ما لم نعهده عند الجاحظ² ، فهو عند ابن رشيق "عمل يقوم على التلقائية عند المبدع دون إجهاد نفس ، وهو يقابل للصنع"³.

على أن ابن رشيق يميز بين ضربين من المصنوع ، أول ما جاءت صنعته عفواً ، والصنعة في هذا المستوى تطوير للطبع وتجاوزاً له ، وقد ضرب ابن رشيق لذلك مثلاً بحوليات زهير بن أبي سلمى الذي كان "يصنع القصيدة ، ثم يكرر نظره فيها عفوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة ، أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه ، فتباطأ عمله بذلك"⁴.

وينبغي أن ننتبه على أن الصنعة في هذا المستوى لا تعني عند ابن رشيق تدبير أمر الوجوه البلاغية التي يستخدمها الشاعر فحسب ، وغنما تشمل إضافة إلى ذلك "فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وإبرازه ،

¹ - ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق الدكتور محمد فرقان ، الطبعة الأولى دار المعرفة ، بيروت ، 1988 ، ج 1/ص 258-267.

² - ينظر الدكتور حمادي صغوة : التفكير البلاغي عند العرب ، المطبعة الرسمية ، تونس 1981م ؛ ص/220.

³ - ينظر حمادي السعوي : أدبيات الفن الشعري من حلال العمدة لأبن رشيق ، مجلة الحياة الثقافية ، العدد (5)، وزارة الشؤون الثقافية، تونس 1989 ؛ ص/30.

⁴ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ؛ ج 1/ص 258.